وصف غرفة في مكتبة

(استخرج هذه الصفحة من فصول لم تنشر بعد كتبتها تحت عنوان « مذكرات الجامعة المصرية » لسنة ١٩١٦ . والغرفة التي وصفتها تابعة لمكتبة الجامعة وهي اليوم مركز سكرتارية المكتبة . اما يوم كتبت فيها هذه الصفحة فكانت خالية يجتمع فيها الطالبات اذا جئن قبل ابتداء الدرس الذي يقصدن حضوره . ومنهن الفرنساوية والانجليزية والروسية واليونانية والايطالية والبلجيكية والسورية . ولم تخل تلك الاجتماعات الا من الفتاة المصرية وهي الحقيقة بحضور الدروس اكثر من غيرها لان الجامعة جامعتها اكثر منها جامعة الاجانب

كنا نجتمع هناك كمؤتمر دولي تام لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح . او كمؤتمر نسائي غرضه المطالبة بحقوق المجاهرة بمبادئ على ان الاحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على شيء من ذلك لانها كانت مقتصرة على اخبار « الكونسرتات » والسينماتوغرافات والازياء واشكال البرانيط الحديثة . وكان يتخلل هذه الثرثرة النسائية الملحنة ضحك طويل « يذهب دبيبه » في كل موضوع تجاذبت اطرافه فتاتان . فكيف به اذا صار ضجة فتيات كثيرات ؟

من عجائب الحديث النسائي ان السيدات ما يصغين جميعاً ولا تتكلم منهن واحدة وهذا اندر من النادر . واما يتكلمن جميعاً في آن واحد ولا تصغي منهن واحدة . وكانت الحال الثانية حالنا في اجتماعاتنا نظن عليها حتى يعرض لنا ذكر موضوع الدرس فيهدأ ضجيجنا بغتة ونسمع جميعاً للمتكلمة فينا ولا نحجم عن بث الآراء والمناقشة احياناً . ونبقى « عاقلات » حتى يمر في الحديث خيال نكتة صغيرة فنعود الى الثرثرة والقهقهاء والضحك المتقطع المتواصل

اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيات في كل زمان ومكان ولكننا لم نكن نهتم « بسر » الغرفة التي تجمعنا جدرانها ولم ننتبه لذلك « السر » الا يوم وجدتني هناك وحدي ناظرة الى ما نشر على الجدران من رسوم اعاظم الكتاب والمفكرين)

ان للامكنة الروحانية

يقال ان في اسبانيا اليوم ثلاثة جامعة. وثلاث كانت الجامعة المصرية احدث هذه الجامعات سناً واقلهن ثروة مادية. لانهُ ليس لاقليمها حرون تعنى بتدريس الطلبة وربة تعليمهم. وهي مع ذلك اخذة مكانها بينهن. وظاهرة خاصة بكونها جامعة اهلية

لكنها ليست جامعة الدرق في الشرق الادنى. ان الازهر الشريف اقدم جامعات الشرق والعرب لانهُ اسس في القرن العاشر في حين ان اقدم جامعات اوربا — وهما جامعة بولونيا وباريس — لم توجد قبل القرن الثاني عشر

يحتل الازهر سمي القدم غير ان بابهُ مقفل في وجه غير المسلمين وتعاليمهُ لغوية دينية في الغالب. فهو في نظر كثير من الناس اشبه شيء بحرم عميق يدكره المرء وفي وسعهِ تصوره مع من يدكنهُ ولكن لمسهُ ليس بالامر الميسور

اما الجامعة المصرية فمفتوحة للجميع ولا تقفل من قصدها حداثة سنها. ان كل صغير محبوب لانهُ يطلب العطف. كل صغير مستودع آمال كبيرات لان فيهِ قابلية النمو والتكاثر

قال الفرد دي موسه (وهو الشاعر الذي أعطي قوة التعبير عن العمق العواطف بألطف الالتفاف): «كأسي صغيرة لكني اشرب من كأسي». وعلى هذا القياس للمصريين ان يقولوا: «جامعتنا صغيرة لكننا نتعلم في جامعتنا»

***

ليست الجامعة بنوع عام وافد لطلبتها وطالباتها فحسب بل هي مهبط وحي لي حين بلغها قبل ابتداء الدرس الذي ابتغي حضوره بدقائق اقضيها بالانتظار والتأمل

فكم من افكار جميلة أنستني ما يحيط بي من آثار الحياة الاضافية! وكم من تأمل التقط موضوعهُ نظري بين وريقات شجرة خضراء! وكم من حلم وحدت خطوطهُ مرسومة في جوّ قاعة الدرس والرائحة محبوكة بخيوط الاشعة المطلة علينا من النافذة! افكار وتأملات واحلام رفرفت عليَّ حيناً وغنَّت في نفسي كالاطيار. ثم فتحت جناحها الذهبي سدة جاة الدرس ينبغي — ففتحت جناحها وانطلقت تعدو الى آفاق بعيدة احبها لانَّ في فيها اطياراً خيالية

أنا الآن في غرفة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة وليس في هذه الغرفة من الكتب الا ثلاثة أجزاء اسمها رنتها لانها خبيت تحت كتاب رائع من تأليف مارمونتل. وهو اديب فرنساوي لم يتقرَّ في موضوع من الموضوعات الكثيرة التي عالجها بل

اكتفي بالاحاطة فيها جميعاً احاطةً مستدلة تاركاً البراعة والتفوق لاستاذيها الكبيرين ڤولتر وروسو : روسو الذي حاول تكوين مجتمع جديد بقلمه القادر البليغ وملأ العالم ندباً وبكاء . وڤولتر الذي كافح القيود الدهرية برأس قلمه الذي لم يكد يلمس القرطاس لرشاقته وخفته حتى نفذ كالسهم الى اعماق الافكار . فاستمت لذلك الفوز شفناه وكانت تلك البسمة الخالدة فخر الحرية المنبثق من ليل العبودية الاليل !

انّ في هذه الغرفة الصغيرة روحاً تناجيني وسرّاً أطمع في اجتلاء غوامضه . كلّ ما يحيط بنا في الحياة سرٌّ ولغزٌ لكن حواسنا المقفلة باحمال المادة تحجب عنا الانوار الكامنة فلا نرى للاشياء وجوداً ولا ندرك لها حقيقةً الاّ بقدر ما تتفق معانيها مع اطماعنا وشواغلنا

كلما رأيتي وحدتي في هذه الغرفة شعرتُ بانّ في جوّها روحاً . أهي مجموع أرواح النوابغ الحاضرين هنا برسومهم وخلاصة الافكار المنطلة من اعناقهم ؟

نهضتُ أمشي في الغرفة . امشي وأفكر . وراء الطاولة التي اكتب عليها صورة سفينة ركبت من البحر جواداً حروناً وسارت تقطع الامواج الكثار بقوة وثبات . وتحت السفينة اطارٌ حوى ورقة ممزقة وفيها بعض السطور الهيروغليفية

الكتابة الهيروغليفية قرب الباخرة : ان جوار هذين الرسمين يؤثر فيّ تأثيراً عظيماً : السفينة فينيقيا والخطُّ الهيروغليفي مصر فينيقيا ومصر . المدنيتان القديمتان اللتان بزغت منهما جميع مدنياتنا الحديثة وانحدرت من ذراريهما تواريخ ذرارينا ترى هل وقفنا على جميع ما فيهما من الاسرار وعرفنا كل ما كان عندهما من علم وفنّ ومقدرة وسلطان ! أم نحن مدعون في ذلك دعوانا في جميع أقسام المعرفة ؟

قبل ان يكتشف كولمبس القارة الاميركية بقرون طويلات كانت سفن الفينيقيين تضرب في البحر طولاً وعرضاً وقد حدد التاريخ خطوط رحلاتها ولكن اي شيء اكثر من العلم جهلا ان لم يكن التاريخ ؟ ومن يدرينا ما اذا كانت اليد التي شادت الاهرام واقامت الهياكل المتراكمة اليوم بقاياها على رمال النيل هي غير اليد التي أوجدت هياكل ترى الآن انقاضها في اواسط اميركا وكشفت ما عثر عليه لورد دوفرن من نقوش شرقية ومسلات مصرية في كولومبيا البريطانية ؟

والتلفون الذي أراه في الزاوية على مقربة من الكرة الارضية أهو اختراع حديث ليس غير ؟ ألم تكن من نوعه الآلة التي يقال انها كانت مستعملة عند كهنة

بريس واوزيريس لمخاطبة كهنة الهياكل الاخرى من اقصى البلاد الى اقصاها في خلال الاحتفالات السنوية الكبرى والأجتماعات الدينية : ولماذا لا يقوى العلم الحديث على استخراج الارجوان من الاصداف كما كان يفعل الفينيقيون ؟ لماذا لا يخرج لنا ألواناً ثابتة لا تنفض لضارتها كالوان هياكل الاقصر

أكان اجدادنا جاهلين ام نحن هم ظالمون ؟ ام كلٌّ ما بين عصورهم وعصورنا من الفرق أنّ العلم كان عندهم محصوراً ضمن الاقلية وقد أصبح في زماننا «حقة من جد اعتزاما » ؟

***

ولكن لنتابعنّ سيرنا في الغرفة . في منتصف الجدار الى اليمين صورة هوغو في شيخوختهِ ويدهُ تحس جبهتهُ المثقلة بالافكار العظيمة . كأنما هو في جلوسهِ يناجي الاجيال قائلاً : ها انا ذا ! انا هوغو الذي عرف من الحياة مجداً وثروة وحباً . انا هوغو الذي بعث بهِ رؤوس وطنهِ الى المنفى فكان سعيداً في الشقاء . أنا هوغو الذي بحث عن نوابغ الماضي ودوّن اسماءهم تاركاً بعدها بياضاً ناصعاً ومكاناً واسماً لاسم جديد . والاسم الذي اعني هو اسم الرجل الجالس هنا حاملاً على يدهِ جبهتهُ المثقلة بالافكار العظيمة : ڤيكتور هوغو !

والى شمال هوغو أرى الفيلسوف ديكارت الذي قال فولتر في وصفهِ انهُ جعل العميان يبصرون لانهُ بيّن للقرن الخامس عشر أغلاط القرون الخالية وجمع خلاصة تعاليمهِ في جملة واحدة وهي : « لتبلغ الحقيقة يجب ان تنسى مرةً في حياتك جميع الآراء والاعتقادات التي شبت عليها ثم تقيم اساساً جديداً لآراء واعتقادات شخصية »

سبحان الله ! الى شمال ديكارت أرى بوسويه اسقف « مو » . تُرى ماذا يقول ديكارت لبوسويه في ساعات الوحدة وماذا يجيبهُ الاسقف الكاثوليكي ؟ ليت لي من سبيل الى التجرد من جسدي حيناً لاسمع محاورتهما ولو مرة واحدة ولاعلم كيف يتناقش الدين والعلم في عالم الارواح !

على يمين هوغو موليير الشاعر المنتقد المضحك الذي ملأ تآليفهُ تحت لهجة الاستخفاف والتكيت انتقادات اجتماعية وعلمية ودينية وعلّم اهل زمانهِ الضحك من انفسهم غير متذمرين

وعلى يمين موليير وجه نحيف جذاب يُعبّر عن شخصية عبقرية . من هذا ؟

لو لني مصوّرك كتابة اسمك تحت رسمك. لو درست آثار فكرك وعملك وانتقادك وطمس الزمان كل ما ايّدهُ قلمك. لو اكلت الدود وجهك غير مبقية الاّ على شفتيك لعرفتك يا فولتر . يا لفمك من فم هائل في كلامهِ هائل في بسمتهِ هائل في سكوتهِ حتى في سكوت الصور !

تحت هوغو اطارٌ ذو رسمين يمثل احدُهما راسين والآخر بوالو . ولو انصفت الجامعة لوضعت راسين فوق هوغو. لكني اعلم انها لم تفعل ذلك الاّ وفقاً لقاعدة التناسب ولان صورة الثاني عندها اكبر من صورة الاول . كذلك تسير مواكب الحياة : فكثيراً ما يقفلُ الاكبرُ تحت الكبير ويقفُ الاحسنُ دون الحسن . ولكلٍّ ان يرضى بما قُسم لهُ لان الزمان شاء ومشيئتهُ لا تتغير !

من زاوية فولتر الى الباب تمتد مكتبة صغيرة خالية مما وُجدتْ لهُ تتجلى فوقها صورة امرأة عظيمة : مدام دي ستايل ! كم تسرني رؤية هذه المرأة قرب هؤلاء الرجال! كأن وجودها هنا عنوان اهتمام الجامعة بالفتيات والفتيان على السواء وكأن صورتها محرك قويٌّ دافعٌ بالفكر النسائي في طريق النور وهو يقول الى الامام !

على الجدار المقابل لجدار فولتر صورة فنيلون اسقف كمبري مؤلف كتاب « تليماك » المشهور بالانتقاد الدقيق الخفي لحكومة لويس الرابع عشر ولملك العظيم نفسهِ . والى جانبهِ معاصرهُ الشهير كورنيل مؤلف الروايات البديعات اللاتي ما برحن ميداناً واسعاً فيهِ الحب والواجب يقتتلان

وعند الباب هيكل عظام انساني لكن تلك العظام من خشب الجوز او من خشب آخر دُهن بهذا اللون . كل ما هنا يساعد ما في جواره لجعل هذه الغرفة كبيرةً في صغرها عظيمة في سذاجتها

صدق القائل ان للغرف ارواحاً ...

احبُّ روح هذه الغرفة الممزوجة من ارواح شتى

وهل من مخبر عما رأتهُ هذه الجدران قبل ان تكون للجامعة من افراح واحزان وعما شهدتهُ من تقلبات الحدثان؟ لعلها سمعت تنهدات لم يلن لها قلب او رأت قلباً وحيداً لم يشاركهُ في ابتهاجهِ احد؟ لعلها رأت دموعاً سخينة لم تمسحها اليد الرحيمة؟

فولتر ! هوغو .

لو تكلمت الجدران لكانت اتم منكما بلاغةً واعمق تأثيراً ! (يي)